

أولى حواضر الدراسات اللغوية المغربية

بقلم
أ/ جريدة يوسف تومي (*)

تاريخ الإرسال:

2017/09/20

تاريخ القبول:

2018/03/20

تاريخ النشر:

2018/06/01

ملخص

عقب أريج المدرسة المغربية، فغدت مقصد الغرب الأوروبي، وأضحت مؤلفاتها متطّلع علماء المدرسة المشرقية، فصارت منهلاً وحجة.

هذا الصرح العلمي في الدراسات اللغوية؛ تأسس في أحضان حواضر علمية، تعدّ لبناته الأساس: القيروان حاضرة المغرب الأولى، التي لقنت العلم لطلابها في المساجد ودور الحكمة، ومجالس العلماء، منتشبة في ذلك كله بروح المدرسة المشرقية، فكانت بحق أحد منابر الثقافة العربية الإسلامية المغربية، تأسست في أحضانها

المدرسة القرطبية الأندلسية التي ذاع صيتها في عهد الطوائف لاهتمام ملوكها -الطوائف- بالعلماء ومجالسهم فغدت منارة عالمية ومقصداً لإزالة ظلام الجهل على البشرية.

وباضطراب أمر القيروان و زوال فردوس الأندلس قامت مدينة فاس لتستلهم من منبر القيروان، ومنارة قرطبة جامعة أشتات علم الحاضرتين أوقدت فتيل سُرجه من مسجد القرويين.

تقتفي المداخله نشأة علوم العربية في أولى حواضر المدرسة المغربية

متخذين في ذلك المنهج التاريخي، لتوافقه مع تتبع التطور الكرونولوجي لصناعة العلوم اللغوية في عهدها الأول، متبعين في ذلك خطة عمل انطلقت من:

مقدمة تناولت مفهوم المغرب.

تالتها حواضر علوم اللغة في بلاد المغرب: القيروان، قرطبة، فاس

كُللت بخاتمة: رصدت أهم التوصيات التي بلغها البحث

الكلمات المفتاحية: العلوم اللغوية. القيروان. قرطبة. فاس.

(*) قسم اللغة العربية — كلية الآداب واللغات — جامعة المديّة. djaouida.yt@gmail.com

مقدمة

اعتزّ المغرب العربي بالفتح الإسلامي الذي أُعْتُبر " نتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الإسلامية لتصفية الإمبراطورية البيزنطية المعادية للإسلام، خصوصا وأنّ المغرب في ذلك الوقت كان ولاية من الولايات التابعة لها...¹

والمغرب لغة هو "كلّ ما يقابل المشرق من بلاد"² أمّا اصطلاحاً فقد اختلف في تحديده جغرافياً فهناك من اعتبر أنّه، "يشمل بلاد شمال أفريقيا بالإضافة إلى إسبانيا الإسلامية (الأندلس) وجميع الممتلكات الإسلامية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط مثل صقلية، وجنوب إيطاليا " ³ وذهب فريق آخر " مثل المؤرخ الأندلسي ابن سعيد المغربي إلى اعتبار مصر أيضاً ضمن مجموعة البلاد المغربية باعتبارها القاعدة السياسية والعسكرية والثقافية لهذه المنطقة الغربية في الفترة الإسلامية الأولى أما في عهد العباسيين " زاد مدلول المغرب اتساعاً، المغرب العربي فصارت الشام أيضاً ضمن المغرب، إذ يروي المسعودي أنّ العباسيين قسموا مملكتهم إلى قسمين وهما: المغرب ويشمل الشام ومصر وإفريقيا ومايلها غرباً ؛ والمشرق يشمل بلاد فارس ومايلها شرقاً، وعلى هذا الأساس قسم هارون الرشيد مملكته على أبنائه الأمين والمأمون والمؤمن.⁴، ولكن على الرغم من كلّ هذه التقسيمات السالفة، فإنّ جمهرة المؤرخين والجغرافيين العرب اتفقوا على تحديد كلمة مغرب بالأراضي الإسلامية الممتدة غربي مصر إلى المحيط الأطلسي، فهناك المغرب الإفريقي، وهناك المغرب الأندلسي ولهذا فإنّ كلمة مغرب أو مغاربة قد تعني أيضاً الأندلس وأهله. وعلى هذا الأساس كانت مدينة الإسكندرية هي الحد الفاصل بين المغرب والمشرق، ولهذا عرفت باسم «باب المغرب»، لأنّها كانت معبراً لجميع المغاربة القادمين من المغرب أو العائدين إليه سواء بالبر أو البحر بقصد التجارة أو طلب العلم أو تأدية فريضة الحج، وهذا الموقع الجغرافي قد أعطى لمدينة الإسكندرية طابعاً مغربياً مازلنا نلمس آثاره حتى اليوم.⁵

حواضر علوم اللغة في بلاد المغرب

اهتمت الخلافة الإسلامية منذ القرن الأول بفتح بلاد المغرب وإدخال الإسلام إليها، فتوالى على هذه المهمة قادة كثر ؛ على رأسهم عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب، وآخرهم حسان بن النعمان الغساني في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، والملاحظ أنّ جلّ الفاتحين اعتبروا القيروان محط رحالهم، وهو اختيار عقبة بن نافع الفهري معتبراً إياها "مكاناً استراتيجياً هاماً، إذ جعلها بعيدة عن الساحل خوفاً من غارات البيزنطيين، وبعيدة عن جوف الصحراء خوفاً من غارات البربر "⁶، وقد دخلها عقبة بن نافع داعياً الله "اللهم املأها علماً وفقها واعمرها

بالمطعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك وأعزّ بها الإسلام وامنعها من جبايرة الأرض⁷.

حظيت القبروان بمكانة مرموقة فصارت مقرّ الخلافة ومركز الجيش، ودار العلم إلى أن استبد بها الأعراب أين هجرها أهلها .

ازدهرت الحياة الثقافية بالقبروان على يد صحابة رسول الله وتابعيهم " ومنهم: أبو عبد الله محمد بن أوس الأنصاري الذي اشتهر بالفقه والصلاح مع إحاطته بالرواية والدراسة... فمن أولئك الصحابة وهؤلاء التابعين وغيرهم تلقى ناشئة العرب المولودون وأبناء الأفارقة والبربر الذين شرح الله صدورهم للإسلام والقرآن الكريم والسنة النبوية والتعاليم الدينية والتمسك بالحق والجهر به. وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وجّه عناية خاصة إلى المركز الإسلامي في غرب الدولة الإسلامية فاختار عشرة من فقهاء التابعين أهل فضل وعلم على عاتقهم مهمة القيام بنشر التعاليم الدينية وتنقيف المسلمين في أفريقيا فقدمت بعثة الفقهاء إلى القبروان واستقرت فيها وكان لكل واحد منهم جهود موفقة ذات أثر عميق في تنقيف المسلمين كانت مقدمات لبزوغ فجر الحركة الفكرية في العلوم الدينية في مدينة القبروان⁸

كما اعتنى بها الخلفاء بإرسال بعثات علمية، تضمّ خيرة العلماء الذين " أقاموا فيها قصد التعليم والتنقيف وعندهم أخذ أبناء القبروان أصول اللغة وأشعارها وأيام العرب وأخبارها ووقائعها وبذلك أحاط أبناء القبروان باللغة وآدابها وعلى أيدي هؤلاء العلماء الأجلاء بدأت الحياة الفكرية في اللغة...⁹

ومن أبرز من وفد على القبروان "في أيام يزيد بن حاتم... عالمين كبيرين من علماء النحو واللغة أحدهما بصري والآخر كوفي... وهما: **يونس بن حبيب الضبي**: أحد أبناء البصرة وكبار أئمة اللغة والنحو فيها... وقد قدم إلى القبروان ولا شك أن طالبي العلم في القبروان قد اغتتموا فرصة وجود ذلك العالم الجليل بينهم فتحلقوا عليه ليقتبسوا من علمه الغزير وأدبه الجم وروايته الواسعة. **قتيبة الجعفي النحوي**: من علماء النحو المشهورين في الكوفة ومن أصحاب الكسائي، وكان عالماً في الحديث واللغة والشعر والنسب وأيام العرب واتصل بالمهدى العباسي في بغداد، على أيدي هؤلاء تخرّج أمان بن الصمامه بأكورة أبناء القبروان في اللغة والنحو والشعر كما داوم على الدراسة والتعلم¹⁰

ظلّ الطلبة القبروانيون يتعلمون اللغة العربية قصد فهم القرآن والسنة النبوية، فهم البربر الذين تعطشت أفئدتهم لفهم هذا الدين، متراوحين بين جامع القبروان ومن وفدها معلماً، وبين الرحلة إلى المشرق منارة العلم، وقبلة المتعلمين، "عظم الاهتمام باللغة والنحو وفروع العربية الأخرى في هذه الفترة التي ازدهرت فيها الحياة الفكرية، وبذل العلماء جهوداً كبيرة في تحصيل

العلوم والتبحر فيه وأقبل الطلاب على الأساتذة المتخصصين في ذلك يتزودون من علمهم ومعرفتهم ويأخذون عنهم قوانين اللغة: النحوية والصرفية والبلاغية وقوانين الشعر العروضية فدرسوا مذاهب البصريين والكوفيين في النحو والصرف. وعنوا بالاعتراف من معين اللغة برواية آدابها وأخبارها وسهلها وغريبها... فضل المغاربة عموماً في هذه الفترة متلقين على يد مؤسسي هذا العلم، إلا أنه من الإنصاف القول أنه بدأ يشع فيهم وهج الإبداع الأول إذ " استطاع بعض علماء القيروان أن يضيف دراسة علوم العربية التي كانت تدرس في المشرق من نحو اللغة وصرفها ابتكار دراسة جديدة وهي دراسة النحو المقارن وكان ذلك بين اللغة العربية والعبرية والبربرية بما أثبت أن أصلها واحد وقد بدأ ذلك يهودا بن قريش التاهرتي الذي كان يتقن اللغات الثلاث مع الفارسية والذي ألف كتاباً لا يزال موجوداً إلى اليوم بمكتبة أكسفورد حيث يعتبر أول واضع لعلم النحو التنظيري، وفي أيام الفاطميين نبغ العلامة دونش بن تميم الفيلسوف اللغوي الذي سار على يهودا بن قريش وألف في أصول اللغتين العبرية والعربية وبذلك كانت بداية ابتكار النحو التنظيري في تاهرت والقيروان في هذه الفترة " ¹¹، وعلى نفس النسق التناظري " ألفت معاجم في اللغة العربية والبربرية معاً واعتنى كذلك أصحاب المعاجم النباتية مثل ابن الجزار وغيره بإيراد التسميات البربرية للنباتات مما يدل على وجود مقارنة حتى في المعاجم اللغوية. ولا شك ذلك مما أدى إلى إقبال البربر وتشجيعهم على تعلم العربية والتعمق في فهمها تعمقاً مبنياً على الدقة في فهم المعاني العربية. ¹²، ففتحت حذاقة المشتغلين بالنحو " فأبو الوليد عبد الملك بن قطن المهري ¹³ و أبو عبد الله بن إسماعيل ¹⁴، اشتهر بحمدون النحوي ولقب بالنعجة وهو من كبار تلاميذ أبي الوليد المهري، أبو القاسم إبراهيم بن عثمان بن الوزان النحوي ¹⁵ .

يمكن أن نقول " أن اللغة العربية... قد انتشرت تدريجياً بين البربر مع انتشار الإسلام بينهم، وذلك لكي يتمكنوا من قراءة القرآن و تأدية الصلاة وفهم تعاليم الإسلام. فالبربر إذن قد تعربوا، واكتسبوا ما تقيده تلك اللغة من تفكير وتعبير، فصارت لهم نفس العقلية العربية، وصار يوجد فيهم الفقهاء والشعراء والخطباء، والمذاهب السياسية والدينية المعروفة في الدولة الإسلامية كالشيعة والخوارج والمعتزلة. كذلك صارت حياتهم ومعاملاتهم قائمة على أساس الشريعة الإسلامية ¹⁶ " وكانت القيروان هذه في قديم الزمان – منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب – دار العلم بالمغرب ؛ إليها ينسب أكابر علمائها، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم ¹⁷. وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبطلين، كتباً مشهورة، ككتاب أبي محمد بن عفيف، وكتاب ابن زيادة الله الطنبلي، وغيرها من

الكتب فلما استولى عليها الخراب تفرّق أهلها في كلّ وجه ؛ فمنهم من قصد بلاد مصر، ومنهم من قصد صقلية والأندلس. وقصدت طائفة عظيمة أقصى المغرب، فنزلوا مدينة فاس، فعقبهم بها إلى اليوم.¹⁸

الأندلس حضارة العرب نمت من بذور قيروانية، فعندما " عبر المسلمون إلى الأندلس من القاعدة القيروان كان لزاما للفكر أن يعبر معهم وبدأ -الفكر- يشع من القيروان في الأندلس إلى أن نمت بذور الفكر وصارت أشجارا باسقة تنتقل البلبال الصادرة على أغصانها وأفنانها من فرع إلى فرع... وكانت البلبال الصادرة بالفكر خلال ذلك تحنّ إلى موطنها الأصلي، فكانت الرحلات المتتابعة لأبناء الأندلس من شتى أرجائه وبقاعه إلى القيروان للتزوّد من علمائها في العلم والمعروفة في شتى العلوم والفنون.¹⁹ إلى أن صار للأندلس في العهد المرابطي " مراكز ثقافية يشع منها نور العلم والمعرفة، وقد ظهر ذلك في استقرار جلة اللّغويين والأدباء فيها، ووضعهم المصنّفات القيمة، وفي احتضانها أماكن التدريس كالمساجد والمعاهد والمدارس، وفي المناظرات والمجالس اللّغوية والأدبية التي اشتهرت بها اشتهرت بها بعض المدن، كقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وبلنسية، وغيرها.²⁰

قرطبة مركز الحكم، والعلم كانت أكثر الحواضر الأندلسية استقطابا لمريدي العلم، فقد وصفها الشنقيدي بقوله: " وأما قرطبة فكرسي المملكة القديم، ومركز العلم، ومنار التقى، ومحلّ التعظيم والتقديم، وقد سمعتُ أنّ ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها، ويرفعون أقدارهم، ويصدرون عن آرائهم، وأنهم كانوا لا يقدمون وزيرا، ولا مشورا مالم يكن عالما "²¹، نذكر ثلّة منهم " ابن سيّد البطلانيّ المتوفي 521هـ استقرّ في قرطبة، وجلس في مسجدها الجامع يقرئ علوم الدين والنحو والأدب، وابن الطراوة المالقي المتوفي 528هـ، ارتحل قاصدا قرطبة ليقرأ كتاب سيبويه على أبي مروان بن السراج، ثمّ على مروان الطنبلي، مع أنّه قرأه قبل ذلك في إشبيلية على أبي الحجاج الأعمى وهذا كلّ يدلّ على أنّ قرطبة كانت إحدى المراكز العلمية التي نشطت فيها العلوم والآداب والثقافات المتنوعة، وقد أشار ابن رشد إلى ذلك حين ذكر قرطبة وإشبيلية بقوله (إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُمِلت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات بقرطبة فأريد بيع آلاته حُمِلت على إشبيلية)²²

اتّخذ التّأليف في العهد الاندلسي اتجاهاين أساسيين:

" اتجاه لشرح الكتب التي أصبحت عدّة دارسي النحو واللغة وهي ثلاثة أنواع:

- 1- شرح لدواوين شعرية، كديوان المتنبي والمعري 2- شروح لمجاميع، وديوان الحماسة والأشعار الستة، 3 - شروح "للمقررات" النحوية واللّغوية مثل الجمل للزجاجي، والنوادر للقالبي

وأدب الكاتب والغريب المصنف وإصلاح المنطق. أما الاتجاه الثاني فهو التأليف المعجمي: وهو من حيث الكم أقل بكثير من الاتجاه الأول²³، والجدير بالذكر أن الأندلسيين لم يبقوا عند باب الشروح - وإن دل ذلك على تفقهم في العلم - بل خاضوا فيما يرسم بوضوح لا مريّة فيه وعيهم بما يتلقون من معارف حتى غدوا من الصانعين " ونعني بها ظاهرة كتب الردود ورسائل في الردّ على غيرهم من النحاة بسبب تعدد المنازعات بين العلماء، فقد كانت بين ابن خالون (521هـ) وبين ابن السيد البطيلوسي (521هـ) منازعات ألف فيها كلّ واحد منهما ردا على صاحبه... وأبرز من تظهر عنده ظاهرة الردود هو ابن خروف فقد ردّ على إمام الحرمين الجويني في كتابه الإرشاد والبرهان... و ردّ على ابن طراوة والسهيلي كما ردّ على ابن مضاء القرطبي...²⁴

خلاصة ما يمكن أن نستنتجه من الاتجاه العام للدرس النحوي أن " جلّ آرائهم النحويّة تدور حول الاحتجاج لها سلبا أو إيجابا، ولهذا نستنتج أن الطابع العام للاحتجاج العقلي في الأندلس قد سار باتجاهين:

الأول: وسار عليه جلّ نحاة الأندلس كما وضّحه هذا التمهيد - حيث أن دائرة النقد والردّ والاعتراض كانت توجّه إلى آراء نحويّة بغض النظر عن الإنشاءات المدرسيّة، فاحتجاجهم كان منصبا على توجيه آراء نحويّة، وهم بهذا لم يكونوا مختلفين كثيرا عن غيرهم من نحاة المشرق، وإن كان الغالب على دراستهم النحويّة اعتمادهم على مؤلفات المشاركة، فحظي منهم كتاب سيبويه وحمل الزجاجي وإيضاح الفارسي بكبير اهتمام وعناية.

الثاني: وكان النقد فيها موجها إلى المادة النحويّة بشكل عام لا لآراء نحويّة منفردة، فالخطأ والنقد والاعتراض موجّه بشكل رئيسي إلى الباب النحوي ذاته، وهذا ما انفرد به ابن مضاء القرطبي حيث قاد الهجوم على أبواب نحويّة واحتجّ لبعضها احتجاجات عقلية بحتة.²⁵

علاقة الجوار المغربية الأندلسيّة لعبت دورا هاما في نقل الفكر العلمي إلى المغرب " وعلى هذا فإنّ أكثر كتب التراجم والتاريخ كانت تتعرّض للقطريين على أساس أنهما يمثلان قطرا إسلاميا واحدا، وبالأخصّ في الفترة التي كانت فيها بلاد بالأندلس تحت الحكم المغربي لمدة طويلة قدرّت بحوالي ثلاثة قرون مع بداية عصر المرابطين إلى عصر بني مرين²⁶ وازداد هذا النقل قوّة مع سقوط آخر معاقل الأندلس، فلا يمكن أن ينكر أحد أن التطور الفكري المغربي ذكّت جذوته عقول أندلسيّة، وأهم المراكز التي عرفت استقبالا منقطع النظير لوفود العلماء سبتة وفاس ومراكش إلّا أن " مدينة فاس نالت النصيب الأوفر منهم حيث حلّ بها الخدب الذي درّس النحو فيها العمر كلّ، وابن خروف كذلك الذي درّس فيها على أيدي علمائها النابهين ودرّس، ثمّ تليها مدينة سبتة التي حظيت بكثير منهم كابن الربيع الإشبيلي السبتي وسواه²⁷

وقد اهتم بها -فاس- الحكام منذ تأسيسها على يد إدريس بن عبد الله، ومن بعده المرابطون إذ " ازدهرت فيها العلوم المتنوعة، ولا سيما الدينية، وأصبحت فاس قبلة العلماء من كل مكان، وقد ظهر اهتمام المرابطين الثقافي منذ بدء حكمهم، فقد أسس يوسف بن تاشفين فيها مدرسة الصابرين التي أطلق عليها فيما بعد مدرسة بومدين، وذلك في أوائل القرن الخامس الهجري، وفي هذه المدرسة كانت تدرس علوم الدين واللغة العربية وغير ذلك من أنواع العلوم والمعارف. واشتهرت فاس أيضا بجامع القرويين²⁸ الذي أصبح فيما بعد جامعة يقصدها طلاب العلم من جميع الأمصار... وقد كانت تلك المساجد المصادر الأساسية التي ينهل منها الطلاب العلوم المتنوعة، لكن العلوم الدينية التي تناولت القرآن الكريم والحديث الشريف تأتي في مقدمة ما يُدرّس فيها، وتقف إلى جانبها اللغة العربية لأنها السبيل على فهم القرآن والسنة والتفقه فيهما.²⁹

إنّ تبلور الفكر النحوي في مدارس القيروان ومن بعدها في قرطبة، مكن المغاربة من ولوج عالم التأليف وإن كان فيه شيء من التقليد لمؤلفات المشاركة " والجدير بالذكر أنّ هذا العصر يعتبر عصر نظم المتنون التي كان يقصد بها أصحابها إلى اختصار العلوم وإرساها في الأذهان عن طريق الحفظ والاستظهار، وقد أدّى المغاربة خدمة جلى في هذا الباب بالرغم ممن انتقد على المتنون³⁰ إلا أنهم لم يرضخوا للآخر بل " اختطفوا لأنفسهم طرائق جديدة تبتعد إلى حدّ ما عن غيرها بغضّ النظر عن التأثير المشرقي، حيث لم يعودوا يكتفون بانتظار ما ينتجه المشاركة في هذا الحقل وبشرح مؤلفاتهم فقط، بل هناك الإنتاج المحلي الذي حظي بالعناية عند عامة أهل المغرب وغيرهم مما يتأكد أنّ كثيرا من علماء هذا القطر³¹ وقد نبّه إليه صالح بلعيد قائلا " ما كانوا نكرات في البحوث النحوية، بل سجلوا إضافات نوعية في المشرق والمغرب وكونوا مريدين، وتركوا سجلات نحوية تليق بمقام الآراء النحوية التي كان لها صدى في المشرق، إنّه نبوغ مغربي أثّر الفكر العربي واللغة العربية، ولم تكن بضاعته رُدّت إليه كما قيل³²

ولعل أهمّ معلّم فكري لازال بارزا إلى اليوم تأليف الأبروميّة التي تربطها " علاقة وثيقة بمصطلح النحو في اللغات الأوروبية، حتّى إنّ الكثير يربط هذا العلم باسم هذه المقدمة، ويعتبرها شيئا واحدا فيقال حينها من يريد أن يتعلّم قواعد النحو فليتعلّم (الأبروميّة).³³

إنّ البحث في خصائص المدرسة النحوية المغاربية يحيلنا أول الأمر إلى ولعهم بكتاب سيبويه، مما نحا بهم عن فكرة التيسير وحذف العوامل التي نادى بها ابن مضاء القرطبي، إلا أنهم في الآن نفسه بحثوا على أساليب تعليمية تساعد صغار المتعلمين على تلقي العلوم اللغوية في سهولة أكثر فوضعوا " الشروح والمختصرات التي ترمي إلى تبسيط طرائق تعلّم النحو

وتعليمه، فقد كان من مميزات التعليم في المغرب والأندلس أيضا... وأول محاولة في هذا النوع من التأليف التي كانت من صنيع المغاربة فترة الدراسة المقدمة (الجزولية) التي جاءت موجزة غاية الإيجاز ومشتمة على كثير من قواعد النحو العربي، خالية في الغالب من الأمثلة الموضحة لقواعدها، فقد استطاع صاحبها أن يتناول القضايا النحوية بكثير من الدقة والتركيز على ما رآه ضرورياً من أبواب النحو ومواده التي لا يستغني عنها الطلبة... وكانت (الآجرومية) أيضاً من أهم المختصرات التي عرفها التراث النحوي في المغرب فقد ألّفت بأسلوب بسيط وميسر، بعيد عن التعقيدات التي تقتضي الاختصار، الأمر الذي جعل صاحبها يكتفي بذكر قواعد النحو الأساسية دون إطالة في عرضها وشرحها، مع حذف بعض الأبواب التي استغنى عنها... فقد امتازت المقدمة (الآجرومية) في جميعها ببساطة العبارة ووضوح الألفاظ إلى أبعد الدقة...³⁴ وإن كان رأي ابن خلدون مخالفاً لفكرة الإيجاز "إذ ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدنون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسيرا على الفهم."³⁵

ولما عجزت هذه المختصرات عن تقديم صورة مبسطة أرفوها بالشروحات للكتب المطولة والمختصرات التي وضعها نحاة المشرق والأندلس وحتى المغاربة أنفسهم، والبداية مع كتب النحو المشرقية التي انشغلوا بشرحها والتعليق عليها واختصارها، ولهذا أثر في تنمية النحو العربي عامة والمغربي خاصة...³⁶

لقد برع النحاة المغاربة في نظم المتن اللغوي نحويّة وعروضيّة وفي القراءات القرآنيّة، ومن أبرزهم ابن معط دون أن ننسى "أنّ النظم في النحو عرفه العلماء الأوائل قبل نحاة المغرب عامة، إذ تعود بداياته القرن الثاني الهجري وكان للخليل أقدم قصيدة في النحو ذات ثلاثة وتسعين ومائتي بيت من البحر الكامل التام، حيث ضمت معظم أبواب النحو ومواده، ذكرها خلف الأحمر في مختصره (مقدمة في النحو)...³⁷

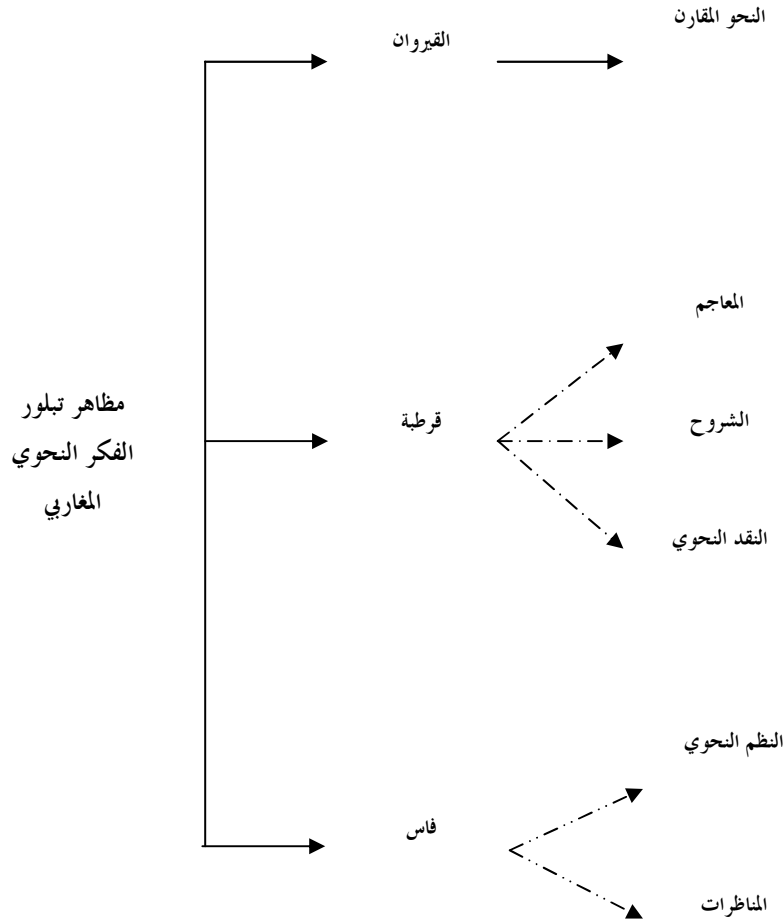
ألّفت المختصرات والشروح في قالبها النظمي بغاية تعليميّة، أمّا المظهر الثاني للنضج اللغوي عند المغاربة هو المناظرات النحويّة التي كانت "تدور إمّا بين الطلبة وشيوخهم وإمّا بين النحاة ونظرائهم في المغرب وخارجه وهي كثيرة الحدوث مقارنة بالمناظرات التي تجري بين الطالب وشيخه... وكثيراً ما تدفعهم المناظرات والمحاورات إلى التأليف في ميدان النحو، وأذكر منها المناظرة التي جرت بين ابن هانئ اللخمي والخدب حول بعض المسائل المتعلقة بكتاب سيبويه. ومناظرة الجزولي مع تلميذه الشلّوبين بمراكش، وهي أشهر المناظرات التي تحدثت عنها

كتب التراجم والنحو حيث تناظرا في مسائل نحويّة مهمة...³⁸

الخاتمة

في ختام موضوعنا نلاحظ أنّ العلوم اللغوية نشأت في المغرب مشرقيّة إلا أنها أوجدت لنفسها مكانة بتميّزها، وتفردتها في الطرح، خاصة وأنّ المشرق العربي يعيش تاريخيا فترة ركود فكري.

ونلخص ما أبدعه النحويون المغاربة في الخطاطة التالية:



- الحواشي والإحالات:

- ¹- في التاريخ العباسي والأندلسي: - أحمد مختار العبادي. دار النهضة العربية. دط. دت. ص 245
- ²- في التاريخ العباسي والأندلسي: - أحمد مختار العبادي. ص 219، 220
- ³- في التاريخ العباسي والأندلسي: - أحمد مختار العبادي. ص 219، 220.
- ⁴- في التاريخ العباسي والأندلسي: - أحمد مختار العبادي. ص 219، 220.
- ⁵- في التاريخ العباسي والأندلسي: - أحمد مختار العبادي. ص 219، 220.
- ⁶- في التاريخ العباسي والأندلسي: - أحمد مختار العبادي. ص 249.
- ⁷- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: - محمد محمد زيتون. دار المنار. ط1. 1988. ص 186
- ⁸- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: - محمد محمد زيتون. ص 185.
- ⁹- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: - محمد محمد زيتون. ص 229.
- ¹⁰- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: - محمد محمد زيتون. ص 230.
- ¹¹- أحمد توفيق المدني: - تاريخ الجزائر. المطبعة العربية الجزائر. 1931. دط. ص 80.
- راجع أيضا محمد محمد زيتون: - القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية. دار المنار. ط1. 1988. ص 326 إلى 330
- ¹²- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية: - محمد محمد زيتون. ص 326 إلى ما بعدها
- ¹³- فأبو الوليد عبد الملك بن قطن المهري:.... كان ذا حافظة قوية فحفظ أنساب العرب وأشعارها ووقائعها وأيامها إلى أن صار شيخ النحويين واللغويين والرواة بالقيروان. وكان الشعر الجاهلي يلقي عليه فيشرحه ويبين معانيه فلما قدمت الشروح من المشرق لم يجد من تلقى عنه خلافا بين شرحه وشرح المشاركة. وله كتب كثيرة ألفها منها كتاب في اشتقاق الأسماء مما لم يأت به قطرب وكتب تسمى الألفاظ وكتاب في تفسير مغازي الواقدي... اختلف في سنة وفاته
- ¹⁴- أبو عبد الله بن إسماعيل، وتلقى علوم العربية وكان مقدما بعده في النحو واللغة بل قيل إنه كان أعلم منه بالنحو خاصة لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه وكان له مكتب بالقيروان يعقد فيه حلقة يستمع إليه فيها المهتمون بالنحو واللغة من العلماء.
- ¹⁵- من أبناء القيروان النابهين في العلوم العربية مع اتسامه بالأخلاق الكريمة والتواضع وخفض الجناح، وقد تعلم على أساتذة القيروان العلوم العربية وبذل جهدا كبيرا في تحصيلها فكان يحفظ كتاب سيبويه وكتب الفراء وكان يميل إلى مذهب البصريين... وقد بلغ بجده واجتهاده في تحصيل العلوم إلى منزلة عالية في القيروان بالتقدم في ذلك فكان أبو محمد المكفوف إذا وردت عليه مسائل في النحو سألها الإجابة عنها وقال عنه: لو قال لي قائل أنه أعلم من المبرد وتعلب لصدقه من وفق على علمه، كما كان يستخرج من مسائل النحو والعربية ما لا يستخرجه أحد وامره في ذلك يفوق كل أمر.
- ¹⁶- أحمد مختار العبادي: - في التاريخ العباسي والأندلسي. ص 257

- ¹⁷- كانت القيروان هي المركز الرئيسي بالنسبة للمغرب الأوسط والأقصى وهي المنارة العلمية الأولى التي امتد شعاعها على هذه البقاع ولذلك لم يكن غريبا أن نجد أبناء المغرب الأوسط والأقصى يقصدون القيروان للتزوّد من العلوم والمعارف والتلقي عن علماء القيروان والمشاركة في الحياة الفكرية وربما طغى الطموح والشوق ببعضهم لكي يتجه إلى المشرق بعد ذلك. فرحل قاصدا مراكز الفكر في المشرق وبعد العودة يستقر في القيروان وكأنه يرى نفسه أهلا بعد أن حصل على قدر كبير من المعارف للإقامة في القيروان والاستقرار فيها لكي يتلقى العلم عليه طلبة القيروان 1 وإن يفضل الإقامة فيها كمركز فكري أوسع وأعمق يتناسب مع ثقافته ومع ما يطمح إليه من نشر لما حصل عليه من المعرفة، ومن أبناء تاهرت الذين تلقوا العلم في القيروان بعد رحلتهم على المشرق بكر بن حماد وقد ترجمنا له وممن قصد القيروان من أهل مدينة فاس دراس بن إسماعيل الذي تلقى العلم بالقيروان من أبي بكر بن اللباد ومن أهل سجلماسة عيسى بن سعادة السجلماسي الذي طلب العلم بالقيروان وكان صاحب أبي الحسن القابسي عند الشيخ ومن أهل السوس الأقصى محمد بن أحمد السوسي الذي سكن القيروان واستوطنها وصحبه البهلول بن راشد وانتفع به هو وغيره من أهل القيروان" محمد محمد زيتون:- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية. دار المنار. ط1. 1988. ص232-233.
- ¹⁸- المعجب في تلخيص أخبار المغرب:- عبد الواحد بن علي المراكشي. شرح صلاح الدين الهواري. المكتبة العصرية. ط1. 2006 ص 255
- ¹⁹- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية:- محمد محمد زيتون. ص433-434.
- ²⁰- التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين 484هـ -678هـ:- فائق كوكبة. وزارة الثقافة. دمشق 2012. دط. ص 24.
- ²¹- فضائل الأندلس وأهلها، رسالة الشقندي نقلا عن التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين 484هـ -678هـ:- فائق كوكبة. ص 24.
- ²²- التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين 484هـ -678هـ:- فائق كوكبة. ص 25.
- ²³- الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف:- ألبير حبيب مطلق رسالة قدمت لنيل درجة أستاذ في الآداب إلى دائرة اللغة العربية الجامعة الأمريكية في بيروت. 1965.
- ²⁴- الحجة العقلية في الدرس النحوي الأندلسي السهيلي أنموذجا:- محمد جواد الطريحي. مجلة كلية الآداب جامعة بغداد. العدد 78.
- ²⁵- الحجة العقلية في الدرس النحوي الأندلسي السهيلي أنموذجا:- محمد جواد الطريحي
- ²⁶- إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي:- جميلة راجح. أطروحة دكتوراه. إشراف صالح بلعيد 2015. ص. 218-219.
- ²⁷- نفس المرجع. ص 232

²⁸ - "ولعل أبرز اثر تاريخي ثقافي فيها يظهر في جامع القرويين الذي أسسته فاطمة ام البنين القيروانية، وهي ابنة المهاجر التونسي الثري محمد بن عبد الله الفهري القيرواني، واصبحت العلوم والآداب تدرس في جامع القرويين، فاستحال إلى جامعة يؤمها العلماء والأدباء من كل مكان طول قرون متتالية" - التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين 484هـ - 678هـ: - فانت كوكبة. ص 45. 46. 47.

²⁹ - التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين 484هـ - 678هـ: - فانت كوكبة. ص 32. 33.

³⁰ - المغرب عبر التاريخ: - إبراهيم حركات. دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء. 2000. ط. ج. 1. ص 367.

³¹ - إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي: - جميلة راجح. ص 233.

³² - صالح بلعيد: في أصول النحو. دار هومة. 2005. ص 167.

³³ - إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي: - جميلة راجح. ص 233.

³⁴ - إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي: - جميلة راجح. ص 242.

³⁵ - ابن خلدون: - المقدمة. عبد الله الدرويش. ج 2. ط 1. ص 346.

³⁶ - إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي: - جميلة راجح. ص 250.

³⁷ - إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي: - جميلة راجح. ص 255.

³⁸ - إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي: - جميلة راجح. ص 243 - 261.

First metropolises of Maghrebian language studies

youcef toumi djaouida

Faculty of Arts and Languages University of Medea

djaouida.yt@gmail.com

Abstract:

Magrib school became the destination of the Western Europe. Its writings became the forerunner of the oriental school scholars, and they became an argument.

This scientific edifice in linguistic studies, founded in the embrace of scientific cities

The first civilization of EL Magrib is Kairouan. The latter taught science to its students in mosques, And the councils of scholars, all saturated with the spirit of the Oriental school. It Was one of the platforms of the Arab Islamic culture of Magrib. The Andalusian school of Cordoba was founded in its embrace which became known in the era of sects due to the interest of it's kings of scientists and their council. It has become a global beacon and a destination to eliminate the darkness of ignorance of humanity.

Keywords: Linguistics, Kairouan, Cordoba, Fas.